

وفيها توفي أبو الحسن بن العلاف علي بن محمد البغدادي الحاجب، مسند العراق.

وفيها توفي الإمام حجة الإسلام زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي، أحد الأئمة الأعلام، اشتغل في مبدأ أمره بطوس، على أحمد الزادكاني، ثم قدم نيسابور، واختلف إلى دروس إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، وجد في الاشتغال حتى تخرج في مدة قريبة، وصار من الأعيان المشاهير المشار إليهم في زمن أساتذتهم، وصنف في ذلك الوقت، وكان أستاذه يتبجح به، ولم يزل ملازماً إلى أن توفي في التاريخ المذكور في ترجمته، فخرج من نيسابور إلى العسكر، ولقي الوزير نظام الملك، فأكرمه، وعظمه، وبالغ في الإقبال عليه، وكان بحضرة الوزير جماعة من الأفاضل، فجرى بينهم الجدل والمناظرة في عدة مجالس، وظهر عليهم، واشتهر اسمه، وسارت بذكره الركبان، ثم فوض إليه الوزير تدريس مدرسته - النظامية - بمدينة بغداد، فجاءها، وباشر إلقاء الدروس بها، وذلك في جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وأربعمائة. فعجب به أهل العراق، وارتفعت عندهم منزلته، ثم ترك جميع ما كان عليه، وسلك طريق الزهد والانقطاع، وقصد الحج.

وذكر في الشذور أنه خرج من بغداد في سنة ثمان وثمانين وأربع مائة متوجهاً إلى بيت المقدس، متزهداً لباساً خشن الثياب، وناب عنه أخوه في التدريس، ثم ذكره في سنة خمس وخمس مائة. فلما رجع توجه إلى الشام، فأقام بمدينة دمشق مدة يذكر الدروس في زاوية الجامع - في الجانب الغربي منه - وانتقل منها إلى بيت المقدس، واجتهد في العبادة وزيارة المشاهدة والمواضع المنظمة، ثم قصد مصر، وأقام بالاسكندرية مدة، ويقال إنه قصد منها الركوب في البحر إلى بلاد المغرب على عزم الاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين صاحب مراكش - وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى فبينما هو كذلك بلغه نعي يوسف المذكور، فصرف عنانه من تلك الناحية، ثم عاد إلى وطنه بطوس.

قلت هذه الزيادة في ذكر دخوله مصر والإسكندرية، وقصده الركوب إلى ملك بلاد المغرب غير صحيحة، فلم يذكر أبو حامد في كتابه: المنقذ من الضلال - سوى إقامته ببيت المقدس ودمشق، ثم حج ورجع إلى بلاده والعجب كل العجب، كيف يذكر أنه قصد الملك المذكور لأرب - وهو من الملوك والمملكة هرب - فقد كان له في بغداد الجاه الواسع، والمقام الرفيع، فاحتال في الخروج عن ذلك، وتعلل بأنه إلى الحج سالك لأداء ما عليه من فروض المناسك، ثم عدل إلى الشام، وأقام بها ما أقام وكذا علماء التاريخ الحفاظ الأكابر ومنهم الإمام الجليل أبو القاسم ابن عساكر - لم يذكر هذه الزيادة التي تنافي رفع همته عن المقاصد الدنية، لإعراضه عن الدنيا والخلق بالكلية، ولما عاد إلى الوطن اشتغل

بنفسه، وآثر الخلوة، وصنّف الكتب المفيدة في الفنون العديدة.

ومن مشهورات مصنفاته: الوسيط والبسيط والوجيز والخلاصة في الفقه، ومنها إحياء العلوم: وهو من أنفس الكتب وأجملها. وله في أصول الفقه: المستصفي والمنحول والمنتحل في علم الجدل، وتهافت الفلاسفة، ومحكّ النظر ومعيار العلم، والمقاصد، والمظنون به على غير أهله، ومشكاة الأنوار والمنقذ من الضلال، وحقيقة القولين، وكتاب ياقوت التأويل في تفسير التنزيل أربعين مجلداً، وكتاب أسرار علم الدين، وكتاب منهاج العابدين، والذرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة، وكتاب الأنيس في الوحدة، وكتاب القرية إلى الله عز وجل، وكتاب اختلاف الأبرار والنجاة من الأشرار، وكتاب بداية الهداية، وكتاب جواهر القرآن، والأربعين في أصول الدين، وكتاب المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، وكتاب ميزان العمل، وكتاب القسطاس المستقيم، وكتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة، وكتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة، وكتاب المنادى والغايات، وكتاب كيمياء السعادة، وكتاب تدليس إبليس لعنه الله. وكتاب نصيحة الملوك، وكتاب الاقتصاد في الاعتقاد، وكتاب شفاء العليل في مسائل التعليل، وكتاب أساس القياس، وكتاب المقاصد، وكتاب إلجام العوام عن علم الكلام، وكتاب الانتصار، وكتاب الرسالة الدينية، وكتاب الرسالة القدسية، وكتاب أبيات النظر، وكتاب المآخذ، وكتاب القول الجميل في الردّ على غير الإنجيل، وكتاب المستظهري، وكتاب الأمالي وكتاب في علم اعداد الوقف وحدوده، وكتاب مفصل الخلاف، وجزء في الردّ على المنكرين في بعض الفاظ إحياء علوم الدين.

وقال يمدحه تلميذه: الشيخ الإمام أبو العباس الأقلشي المحدث الصوفي، صاحب كتاب النجم والكواكب وغيره:

أبا حامد أنت المخصّص بالحمد	وأنت السذي علّمتنا سنن الرشيد
وضعت لنا الإحياء يحيي نفوسنا	وينقذنا من طاعة المارد المردي
فربع عبادات وعاداتها التي	تعاقبها كالدرّ نظم في العقد
وثالثها في المهلكات وإنه	لمنح من الهلك المبرح بل بعدي
ورابعها في المنجيات وإنه	ليسرح بالأرواح في جنّة الخلد
ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر	ومنها صلاح للقلوب من البعد

وكتبه كثيرة، وكلها نافعة، ثم ألزم بالعود إلى نيسابور والتدريس بها بالمدرسة النظامية، فأجاب إلى ذلك بعد تكرار المعاودات، ثم ترك ذلك وعاد إلى بيته في وطنه، واتخذ خانقاها للصوفية، ومدرسة للمشتغلين بالعلم في جواره، ووزع أوقاته على وظائف الخير من ختم القرآن ومجالسه أهل القلوب، والقعود للتدريس، إلى أن انتقل إلى ربّه هذا

ما ذكره بعض علماء التاريخ .

قلت : وكان رضي الله تعالى عنه رفيع المقام ، شهد له بالصدقية الأولياء الكرام ، وهو الحبر الذي باهى به المصطفى سيد الأنام موسى وعيسى - عليه وعليهما أفضل الصلاة والسلام - في المنام الذي رويناها بإسنادنا العالي عن الشيخ الإمام القطب أبي الحسن الشاذلي والذي انتشر فضله في الآفاق .

وتميز بكثرة التصانيف وحسنها على العلماء ، وبرع في الذكاء وحسن العبارة وسهولتها ، وأبدع ، حتى صار إفحام الفرق عنده أسهل من شرب الماء .

قال الشيخ الإمام الحافظ ذو المناقب والمفاخر السيد الجليل أبو الحسن عبد الغافر الفارسي : محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي حجة الإسلام والمسلمين ، إمام أئمة الدين ، لم تر العيون مثله لساناً وبياتاً ونطقاً وخاطراً وذكاء وطبعاً ، ابتداءً في صباه بطرف في الفقه في طوس ، على الفقيه الإمام أحمد الزادكاني ، ثم قدم نيسابور مختلفاً إلى درس إمام الحرمين في طائفة من الشبان من طوس ، وجدّ واجتهد حتى تخرّج عن مدة قريبة ، وصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه في أيام إمام الحرمين ، فكانت الطلبة يستفيدون منه ، ويدرس لهم ، ويرشدوهم ، ويجتهد في نفسه ، وبلغ الأمر به إلى أن أخذ في التصنيف .

وكان الإمام - مع علو درجته وسمو عبارته وسرعة جريه في المنطق والكلام لا يصفى نظره إلى الغزالي سرّاً ، لإنافته عليه في سرعة العبارة ، وقوة الطبع ، ولا يطيب له تصديده للتصنيف - وإن كان متخرّجاً به منتسباً إليه ، كما لا يخفى من طبع البشر - ولكنّه يظهر التبحر به والاعتداد بمكانه ظاهر أخلاق ما يضمّره .

ويقال على ما ذكره بعض المؤرخين أنّه لما صنّف كتابه المنخول ، عرضه على إمام الحرمين فقال : دفتني وأنا حيّ ، فهلا صبرت إلى أن أموت ؟ لأنّ كتابك غطى على كتابي .

هكذا نقل عن إمام الحرمين - والله أعلم مع كونه بالمحلّ للذي شهد له بفضل الجملة من أفراد الأئمة ، من ذلك ما تقدّم عن الإمام السمعاني أنّ الشيخ أبا إسحاق الشيرازي قال : تمتّعوا بهذا الإمام ، فإنه نزهة هذا الزمان ، يعني أبا المعاني الجويني - رحمة الله عليهم أجمعين - ، وما تقدّم من وصفه بإمام الأئمة على الإطلاق ، وغير ذلك مما اشتهر من وصفه بالفضائل ، وبراعته في العلوم في الآفاق ، ثم بقي كذلك إلى أن انقضى أيام الإمام ، فخرج من نيسابور ، وسار إلى العسكر ، واحتلّ من مجلس نظام الملك محلّ القبول ، وأقبل عليه صاحب لعلو درجته وظهور اسمه وحسن مناظرته وجري عبارته ، وكانت تلك الحضرة محطّ رحال العلماء ومقصد الأئمة والنصحاء ، فوقعت للغزالي اتّفاقات حسنة من الاحتكاك

بالأئمة وملاقاته الخصوم ومناظرة الفحول ومناقدة الكبار، وظهر اسمه في الآفاق، وارتفق بذلك أكمل الارتفاق، حتى أدت الحال به إلى أن رسم للمصير إلى بغداد للتدريس بالمدرسة الميمونة النظامية بها، فصار إليها، وأعجب الكلّ تدرسه ومناظرته، وما لقي مثل نفسه، وصار بعد إمامة خراسان إمام العراق، ثم نظر في علم الأصول - وكان قد أحكمه - فصنّف فيه، وجدّد المذهب في الفقه، فصنّف فيه تصانيف، وسبك الخلاف، فحرّر فيه أيضاً تصانيف، وعلت حشمته ودرجته في بغداد حتى كادت تغلب حشمة الأكابر وأمراء دار الخلافة، فانقلب الأمر من وجه آخر، وظهر عليه بعد ممارسة العلوم الدقيقة، وممارسة الكتب المصنفة فيها، وسلك طريق التزهّد والتألّة، وترك الحشمة، وطرح ما نال من الدرجة، ولازم الاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة، فخرج عمّا كان فيه، وقصد بيت الله تعالى، وحجّ ودخل الشام، وأقام في تلك الديار قريباً من عشر سنين، يطوف ويزور المشهد المعظّمة.

قلت: هكذا ذكر بعض المؤرخين، وقد قدّمت في فساد ذلك من البيان ما يدل فيه على البطلان، والمعروف الذي نصّ عليه أبو حامد في بعض كتبه أنّه أقام في الشام سنتين، نعم، ذكروا أنه أقام بعد رجوعه في العزلة والخلوات، وترك الاشتغال والمخالطات قريباً من عشر سنين.

قال الشيخ عبد الغفّار: وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يسبق إليها، مثل إحياء علوم الدين، والكتب المختصرة مثل الأربعين وغيرها من الرسائل التي من تأملها علم محلّ الرجل من فنون العلم، وأخذ في مجاهدة النفس وتغيير الأخلاق وتحسين السمائل، فانقلب شيطان الرعونة وقلب الرئاسة والجاه، والتخلّى بالأخلاق الذميمة إلى سكون النفس وكرم الأخلاق، والفرّاغ عن الرسوم والتزيينات والتزّيّ بزّيّ الصالحين، وقصر الأمل ووقف الأوقات، أو قال: الأوقاف على هداية الخلق ودعائهم إلى ما يعينهم في أمر الآخرة وتبغيض الدنيا، والاشتغال بها على السالكين، والاستعداد للرحيل للدار الآخرة الباقية، والانقياد لكلّ من يتوسّم فيه، أو يشمّ منه رائحة المعرفة، أو يلحظ بشيء من أنوار المشاهدة، حتى مرّن على ذلك ولان، ثم عاد إلى وطنه ملازماً بيته، مشتغلاً بالتفكير، ملازماً للوقت مقصوداً تقياً، وذخراً للقلوب ولكلّ من يقصده، ويدخل عليه إلى أن أتى على ذلك مدّة، وظهرت التصانيف، وفشت الكتب، ولم تبد في أيامه مناقضة لما كان عليه، ولا اعتراض لأحد على ما آثره، حتى انتهت نوبة الوزارة إلى الأجلّ فخر الملك^(١) جمال الشهداء تغمّده الله

(١) فخر الملك: محمد بن أبي القاسم علي بن خلف البغدادي، أبو غالب - وزير بهاء الدولة بن بويه. الأعلام الخطيرة ٣/ ٢/ ٦٧٨.

بغفرانه -، وتزيّنت خراسان بحشمته ودولته، وقد سمع وتحقّق بمكانة الغزالي ودرجته، وكمال فضله وجلالته، وصفاء عقيدته. ومعاشرته ووفاء سيرته، فتبرّك به وحضره، وسمع كلامه، فاستدعى منه أن لا يبقى أنفاسه وفوائده عقيمة لا استفادة منها، ولا اقتباس من أنوارها، وألح عليه كلّ الإلحاح، وشدّد في الاقتراح إلى أن أجاب إلى الخروج، وخرج إلى نيسابور، وكان الليث غائباً عن عرينه، والأمر خافياً في مستور قضاء الله ومكنونه، فأشير إليه بالتدريس في المدرسة الميمونة النظامية. وغيرها، فلم يجد بداً من الإذعان للولاية، ونوى بإظهار ما اشتغل به. هداية السراة وإفادة القاصدين، لا الرجوع إلى ما انخلع عنه، وتحزّز عن رقه من طلب الجاه ومماراة الأقران، ومكاثرة المعاندين وكم فرّع عصا الخلاف فيه، والوقوع فيه والظعن. فيما يذره ويأتيه، والسماوية به والتشنيع عليه، فما تأثر به، ولا اشتغل بجواب الطاعنين، ولا أظهر استيحاشاً لغمرة المخالفين، قال: ولقد زرته مراراً، وما كنت أحدث في نفسي ممّا عهدته في سالف الزمان عليه من الدعارة، أو قال: من الزعارة وإيحاش الناس والنظر إليهم بعين الازدراء، والاستحقار لهم كبراً وخيلاء، واغتراراً بما رزق من البسطة في النطق والخاطر والعبارة، وطلب الجاه والعلو في المنزلة، وكنت أظنّ أنه متلفح بجلباب التكلف والتيمّن بما صار إليه، فتحققت بعد التزوّي والتنقيح أنّ الأمر على خلاف المظنون، وأنّ الرجل أفاق بعد الجنون.

وحكي لنا في ليل كيفية أحواله من ابتداء ما ظهر له سنلوك طريق التألّه وغلبيت الخال عليه بعد تبخره في العلوم واستطالته على الكلّ بكلامه، والإستعداد بالذي خصّه الله تعالى به في تحصيل العلوم، وتمكّنه من البحث والنظر حتى تنزّه عن الاشتغال بالعلوم العربية عن المقالة، وتفكّر في العاقبة وما يجدي وينفع في الآخرة، فابتدأ بصحبة الفارمذي^(١)، وأخذ مفتاح الطريقة، وامثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والإمعان في النوافل، واستدامة الإذكار والجّد والاجتهاد، طلباً للنجاة، إلى أن جاز تلك العقابات، وتكلف تلك المشاقّ وما يحصل على ما كان يطلبه من مقصوده، ثم حكى أنه راجع العلوم وخاض في الفنون، وعاود الجّد والاجتهاد في كتب العلم الدقيقة، واقتفى بأربابها حتى انفتح له أبوابها، وبقي مدّة في الوقائع، وتكافؤ الأدلة وأطراف المسائل، ثم حكى أنه فتح عليه من باب الخوف باب بحيث شغله عن كلّ شيء وحمله على الإعراض عمّا سواه تعالى، حتى سهل ذلك، وهكذا إلى أن ارتاض كلّ الرياضة، وظهرت له الحقائق، وصار ما كنّا نظنّ به ناموساً وكلف طبعاً وتحققاً، وأن ذلك أثر السعادة المقدّرة له من الله تعالى، ثم

(١) في الأنساب للسمعاني ٣٣٤/٤، ٣٣٥: الفارمذي نسبة إلى فارمذ وهي قرية من قرى طوس، والمشهور بالنسبة إليها أبو علي الفضل بن محمد بن علي الفارمذي.

سألناه عن كيفية الرغبة في الخروج عن بيته، والرجوع إلى ما دعي إليه من أمر نيسابور، فقال معتذراً عنه: ما كنت أجوز في ديني أن أقف عن الدعوة ومنفعة الطالبين بالإفادة، وقد حقّ عليّ أن أبوح بالحقّ، وأنطق به، وأدعو إليه، وكان صادقاً في ذلك، ثم ترك ذلك قبل أن يترك، وعاد إلى بيته، واتخذ في جواره مدرسة لطلبة العلم وخانقاهاً للصوفية، وكان قد وزّع أوقاته على وظائف الحاضرين من ختم القرآن ومجالسة أهل القلوب والقيود للتدريس، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات من معه عن فائدة، إلى أن أصابه عين الزمان ومنّ الأيام به على أهل عصره، فنقله الله تعالى إلى كريم جواره من بعد مقاسات أنواع من التقصّد والمناوأة من الخصوم، والسعي به إلى الملوك، وكفاية الله تعالى وحفظه وصيانه عن أن تنوشه أيدي النكبات، أو ينتهك ستر دينه بشيء من الزلاّت.

وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين: البخاري والمسلم اللذين هما حجّة الإسلام، ولو عاش لسبق الكلّ في ذلك الفنّ في يسير من الأيام يستفزه في تحصيله، ولا شكّ أنه سمع الأحاديث في الأيام الماضية، واشتغل في آخر عمره بسماعها، ولم تتفق له الرواية، وما خلف من الكتب المصنّفة في الأصول والفروع وسائر الأنواع يخلّد ذكره، ويقرّر عند المطالعين المنصفين المستفيدين منها أنه لم يخلق مثله بعده، ومضي إلى رحمة الله تعالى يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة، خصه الله تعالى بأنواع الكرامة في آخرته، كما خصّه بفنون العلم بديناه بمئة ورحمته.

وقلت إلى شيء من ذكر ارتفاع مناقبه وبحر علوم كتبه - أشرت - والانتفاع في بعض القصيدات بقولي في هذه الأبيات:

وأحيا علوم الدين طالعه يتتفع
أبي حامد الغزال غزل مدقق
دُعي حجّة الإسلام لا شكّ أنّه
له في منامي قلت: إنك حجّة
وقلت في أخرى:

بناكم وجير من بناء قواعد
وكم من بسيط في جلاء نفائس
وكم ذي اقتصار مودع ربّ قاطع
بكفّ همام ذبّ عن منهج الهدى
كمثل الفتى الجبر المباهي بفضله
وجمع معانٍ واختصار مطوّل
وإيضاح إيجاز وحلّ لمشكل
لإفحام خصم مثل ماض به اعتل
بحرب نصال لا يرى غير أول
فعنى بغزال العلى وتغزل

به المصطفى باهي لعيسى ابن مريم
 أعندكما حَبْرٌ كهذا فقييل: لا
 رآه الولي الشاذلي في منامه
 تصانيفه فاقت بنفع وكثرة
 وكم حجة الإسلام حاز فضيلة
 بها جاهل مع حاسد طاعن فذا
 وما ضرّ سلمى ذمّ عالي جمالها
 لئن ذمها جاراتها ونضائرها
 فما سلمت حسناء عن ذمّ حاسد

جليل العطايا والكليم المفضل
 وناهيك في هذا الفخار المؤئل
 وترويه عنه من طريق مسلسل
 وحلّة حسن كم بها لعزيز قل
 وكم حلّة حسناتها فضله جلي
 تعامى وعنّها ذاك أعمى قد ابْتُلِي
 ومنظرها الباهي ومنطقها الحلبي
 وعين جمالاً في حلاها وفي الحلبي
 وصاحب حقّ من عداوة مبطل

ولم يعقب إلا البنات، وكان يعرض عليه الأموال فما يقبلها، ويعرض عنها، ويكتفي
 بالقدر الذي يصون له دينه، ولا يحتاج معه إلى التعرّض لسؤال.

قال الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر -رحمة الله عليه -: سمعت الإمام الفقيه أبا
 القاسم سعد بن عليّ بن أبي هريرة الأسفرائيني الصوفي الشافعي بدمشق قال: سمعت الشيخ
 الإمام الأوحّد زين القراء جمال الحرم أبا الفتح عامر بن بحام بن أبي عامر الساوي بمكة
 - رحمه الله تعالى - يقول: دخلت المسجد الحرام يوم الأحد فيما بين صلاة الظهر والعصر
 الرابع عشر من شوال سنة خمس وأربعين وخمسمائة - وذكر شيئاً ظهر عليه من الوجد
 وأحوال الفقراء - قال: فكنت لا أقدر أن أفهم، ولا أجلس لشدة ما بي، فكنت أطلب
 موضعاً أستريح فيه ساعة على جنبي، فرأيت باب بيت الجماعة للرباط الراسي عند باب
 المَزْوَة مفتوحاً، قلت: يعني في جهة الباب المسمّى في الحديث الحَزْوَة^(١)، قال:
 فقصدته، ودخلت فيه، وقعت على جنبي الأيمن بحذاء الكعبة المشرفة مفترشاً يدي تحت
 خدي، لكيلا يأخذني النوم، فينقض طهارتي، فإذا برجل من أهل البدعة معروف بها، جاء
 ونشر مصلاًه على باب ذلك البيت، وأخرج لوحاً من جيبه أظنه كان من الحجر، وعليه
 كتابة، فقَبَله ووضعها بين يديه، وصلّى صلاة طويلة مرسلأ يديه فيها على عادتهم، وكان
 يسجد على ذلك اللوح في كلّ مرّة، فإذا فرغ من صلاته سجد عليه وأطال فيه، وكان
 يملك^(٢) خدّه من الجانبين عليه، ويتضرّع في الدعاء ثم رفع رأسه وقَبَله ووضعها على عينيه،
 ثم قبّله ثانياً وأدخله في جيبه كما كان.

(١) في معجم البلدان: الحزوة: قال الدارقطني: كذا صوابه، والمحدثون يفتحون الزاي ويشدّدون الواو
 وهو تصحيف؛ وكانت الحزوة سوق مكة وقد دخلت في المسجد لما زيد فيه.
 (٢) يملك خدّه: يمرّغه.

فلما رأيت ذلك كرهته، واستوحشت منه، وقلت في نفسي؛ ليت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان حياً فيما بيننا، ليخبرهم بسوء صنيعهم، وما هم عليه من البدعة، ومع هذا التفكر كنت أطرده النوم عن نفسي كيلاً يأخذني فيفسد طهارتي، فبينما أنا كذلك إذ طرأ عليّ النعاس وغلبني، فكننت بين اليقظة والمنام، فرأيت عَرَضَةً واسعة فيها ناس كثيرون واقفون، وفي يد كل واحد منهم كتاب مجلّد، قد تحلّقوا كلهم على شخص، فسألت الناس عن حالهم، وعمّن في الحلقة فقالوا: هذا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهؤلاء أصحاب المذهب، يريدون أن يقرؤوا مذاهبهم واعتقادهم من كتبهم على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يصحّحوها عليه، قال: فبينما أنا كذلك أنظر إلى القوم، إذ جاء واحد من أهل الحلقة - ويده كتاب - قيل إن هذا هو الشافعي - رضي الله تعالى عنه - فدخل وسط الحلقة، وسلّم على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فرأيت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في جماله وكماله لباساً الثياب البيض النظيف، من العمامة والقميص وسائر الثياب على زيّ أهل الصوف، فردّ عليه الجواب، ورحب به، وقعد الشافعي بين يديه، وقرأ من الكتاب مذهبه واعتقاده، وجاء بعد ذلك شخص آخر قيل هو الإمام الأعظم أبو حنيفة الكوفي - رضي الله تعالى عنه - ويده كتاب، فسلم وقعد يمين الشافعي، وقرأ من الكتاب مذهبه واعتقاده، ثم أتى بعده كلّ صاحب مذهب إلى أن لم يبق إلا القليل، وكلّ من يقرأ يقعد بجنب الآخر.

فلما فرغوا، إذا واحد من المبتدعة الملقبة بالرافضة - لعنهم الله - قد جاء ويده كراريس غير مجلّدة، وفيها ذكر عقائدهم الباطلة، وهم أن يدخل الحلقة، ويقرأها على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فخرج واحد ممّن كان مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وآله وسلّم - وزجره، وأخذ الكراريس من يده، ورمى بها إلى خارج الحلقة وطرده، وأهانته.

قال: فلما رأيت أنّ القوم قد فرغوا، وما بقي أحد يقرأ عليه شيئاً تقدّمت قليلاً - وكان في يدي كتاب مجلّد - فناديت وقلت: يا رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم هذا الكتاب معتقدي ومعتقد أهل السنّة، لو أذنت لي حتّى أقرأه عليك؟ فقال - عليه السلام -: وإيش ذلك؟ قلت: يا رسول الله، هو قواعد العقائد الذي صنّفه الغزالي، فأذن لي في القراءة، فقعدت وابتدأت: بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب قواعد العقائد، وفيه أربعة فصول: الفصل الأول: عقيدة أهل السنّة في كلمتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام.

وذكر أنّه قرأ العقيدة المذكورة إلى أن انتهى إلى قول الإمام أبي حامد: معنى الكلمة الثانية: وهي شهادة الرسول، وأنّه - تعالى - بعث النبيّ الأمي القرشيّ محمّد - صَلَّى الله عليه

وآله وسلّم - إلى كافة العرب والعجم والجنّ والأنس، قال: فلمّا بلغت إلى هذا رأيت البشاشة والتبسّم في وجه رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلّم - حتّى إذا انتهيت إلى نعتة وصفته التفت إليّ وقال: أين - الغزالي؟ فإذا بالغزالي كأنّه كان واقفاً على الحلقة بين يديه، فقال: ها أنا ذا، يا رسول الله، وتقدّم، وسلّم على رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلّم - فردّ عليه الجواب، وناوله يده العزيزة والغزالي يقبل يده المباركة، ويضع خديّ عليها تبرّكاً وييده العزيزة المباركة، ثم قعد وقال: فما رأيت رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلّم - أكثر استبشاراً بقراءة أحد، مثلما كان بقراءتي عليه قواعد العقائد.

ثم انتبهت من النوم وعلى عيني أثر الدمع ممّا رأيت من تلك الأحوال والكرامات -، فإنها كانت نعمة جسيمة من الله تعالى - سيما في آخر الزمان مع كثرة الأهواء - فنسأل الله تعالى أن يثبتنا على عقيدة أهل الحقّ، ويحيينا عليها، ويميتنا عليها، ويحشرنا معهم، ومع الأنبياء والمرسلين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، فإنه بالفضل جدير، وعلى ما يشاء قدير والغزالي - بفتح الغين المعجمة وتشديد الزاي وبعد الألف لام.

قال ابن خلّكان: هذه النسبة إلى الغزال على عادة أهل خُوَارِزْمَ وِجُزْجَانَ، فإنهم ينسبون إلى القصار القصارى، إلى العطار والعطاري، وقيل إن الزاي مخففة نسبة إلى غَزَالَة، وهي قرية من قرى طُوس، قال: وهو خلاف المشهور، ولكن هكذا قال السمعاني في كتاب الأنساب والله أعلم بالصواب.

قلت وفضائل الإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي - رضي الله تعالى عنه - أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تشهر.

وقد روبنا عن الشيخ الفقيه الإمام العارف بالله، رفيع المقام الذي اشتهرت كرامته العظيمة، وترادفت، وقال للشمس يوماً؛ قفي، فوقف حتّى بلغ المنزل الذي يريد من مكان بعيد.

عَنْ أَبِي الذَّبِيحِ اسْمَاعِيلِ ابْنِ الشَّيْخِ الْفَقِيهِ الْإِمَامِ ذِي الْمَنَاقِبِ وَالْكَرَامَاتِ وَالْمَعَارِفِ: مُحَمَّدِ بْنِ اسْمَاعِيلِ الْحَضْرَمِيِّ - قَدَسَ اللَّهُ أَرْوَاحَ الْجَمِيعِ - أَنَّهُ سَأَلَهُ بَعْضُ الطَّاعِنِينَ فِي الْإِمَامِ أَبِي حَامِدِ الْمَذْكُورِ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - فِي فِتْيَا أُرْسِلَ بِهَا إِلَيْهِ: هَلْ يَجُوزُ قِرَاءَةُ كِتَابِ الْغَزَالِيِّ؟ فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْجَوَابِ: إِنَّا لِلَّهِ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ سَيِّدُ الْأُئِمَّةِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ الْغَزَالِيِّ سَيِّدُ الْمُصَنِّفِينَ، هَذَا جَوَابُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وقد ذكرت في كتاب الإرشاد أنه سمّاه سيد المصنّفين، لأنه تميّز عن المصنّفين بكثرة

المصنّفات البديعات، وغاص في بحر العلوم، واستخرج عنها الجواهر النفيسات، وسحر العقول يحسن العبارة وملاحة الأمثلة وبداعة الترتيب والتقسيمات والبراعة في الصناعة العجيبة، مع جزالة الألفاظ وبلاغة المعاني الغريبات، والجمع بين علوم الشريعة والحقيقة، والفروع والأصول، والمعقول والمنقول، والتدقيق والتحقيق، والعلم والعمل، وبيان معالم العبادات والعادات، والمهلكات والمنجيات، وإبراز محاسن أسرار المعارف المحجبات العاليات، والانتفاع بكلامه علماً وعملاً لا سيّما أرباب الديانات - والدعاء إلى الله سبحانه برفض الدنيا والخلق ومحاربة الشيطان والنفس، بالمجاهدة والرياضيات، وإفحام الفرق أيسر عنده من شرب الماء: بالبراهين القاطعة، وتوبيخ علماء سوء الراكنين إلى الظلمة والمائلين إلى الدنيا الدنيّة، أولي الهمم الدنيّات، وغير ذلك ممّا لا يحصى ممّا جمع في تصانيفه من المحاسن الجميلات والفضائل الجليلات، ممّا لم يجمعه مصنّف - فيما علمنا - ولا يجمعه فيما نظنّ، ما دامت الأرض والسموات، فهو سيّد المصنّفين عند المنصفين، وحجّة الإسلام عند أهل الاستسلام لقبول الحقّ من المحققين في جميع الأقطار والجهات، وليس يعني أنّ تصانيفه أصحّ، فصحيحها البخاري ومسلم أصحّ الكتب المصنّفات.

وقد صنّف الشيخ الفقيه الإمام المحدث شيخ الإسلام، عمدة المسندين ومفتي المسلمين، جامع الفضائل قطب الدين: محمد ابن الشيخ الإمام العارف أبي العباس القسطلاني - رضي الله تعالى عنهما - كتاباً أنكر فيه على بعض الناس، وأثنى على الإمام أبي حامد الغزالي ثناء حسناً، وذمّ إنساناً ذمّة، قال في أثناء كلامه: ومن نظر في كتب الغزالي وكثرة مصنّفاتة وتحقيق مقالاته، عرف مقداره، واستحسن آثاره، واستصغر ما عظم من سواه، وعظم قدره فيما أمّده الله به من قوله، ولا مبالاة بحاسد قد تعاطى ذمّة أو معانداً، بعدّه الله عن إدراك معاني بهمة، فهو كما قيل:

قل لمن عن فضائله تعامنى تعاماً، لن تعدم الحسناء ذاتاً

هذا بعض كلامه بحروفه، وقال بعض العلماء المالكية والمشايخ العارفين الصوفية، الناس من فضلة علوم الغزالي، معناه: أنهم يستمدّون من علومه ومدده، ويستعينون بها على ما هم بصدد، زاده الله تعالى فضلاً ومجداً على رغم الحساد والعُدَى^(١).

قلت وقد اقتصرت على هذا القدر اليسير من محاسنه وفضله الشهير، محتويّاً بذكر شيء ممّا له من الفضل الباهر والجاه والنصيب الوافرة، وشرف المجد والمفاخر، مما روينا بالأسانيد العالية عن السادة الأكابر، أعني: أمر الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بتعزيز^(٢)

(١) العُدَى: المتباعدون والغرباء. العُدَى: جمع عدوّ.

(٢) التعزيز: اللوم أو التأديب أو الضرب أشد الضرب.

من أنكر عليه ونعم الأمر - حتى إن المنكر ما مات إلّا وأثر السوط على جسمه ظاهر بنصر الله عزّ وجلّ - ونعم الناصر.

وفي السنة المذكورة توفي أبو الهيجاء مقاتل بن عطية بن مقاتل البكري الحجازي الملقب بشبل الدولة، كان من أولاد أمراء العرب، وقعت بينه وبين إخوته وحشة أوجبت رحلته عنهم، ففارقهم، ووصل إلى بغداد، ثم خرج إلى خراسان، واختصّ بالوزير نظام الملك، وصاهره، ولما قتل نظام الملك رثاه بيتين تقدّم ذكرهما في ترجمته، ثم عاد إلى بغداد، وأقام بها مدة، وعزم على قصد كرمان^(١)، مسترفداً وزيرها مكرم بن العلاء وكان من الأجواد فكتب إلى المستظهر بالله قصّته، يلتبس منه الإنعام عليه بكتاب إلى الوزير المذكور، يتضمّن الإحسان إليه، فوقع المستظهر على رأس قصّته: يا أبا الهيجاء، أبعدت النجعة^(٢)، أسرع الله بك الرجعة، وفي ابن العلاء مقنع، فطريقته في الخير مهيع^(٣)، وما يُسر به إليك، فيحلي ثمره سكره، ويستعذب مياه برّه، والسلام.

فاكتفى أبو الهيجاء بهذه الأسطر، واستغنى عن الكتاب، وتوجّه إلى كرمان، فلما وصلها قصد حضرة الوزير، واستأذن في الدخول فأذن له، فدخل عليه، وعرض عليه رأيه القصة، فلما رآها قام وخرج عن دسّته إجلالاً وتعظيماً لكتابها، وأوصل لأبي الهيجاء ألف دينار في ساعته، ثم عاد إلى دسته، فعرفه أبو الهيجاء أنّ معه قصيدة يمدحه بها، فاستنشده إياها فأنشده:

دعي العيسَ تذرّع عرض الفلا إلى ابن العلاء وإلا فلا^(٤)

فلما سمع الوزير هذا البيت أطلق له ألف دينار آخر، ولما كمل إنشاد القصيدة أطلق له ألف دينار آخر، وخلع عليه وقاد إليه جواداً يركبه، وقال له: دعاء أمير المؤمنين مسموع ومرفوع، وقد دعا لك بسرعة الرجوع، وجهاز بجميع ما يحتاج إليه، ورجع إلى بغداد، وكان من جملة الأدباء الظرفاء، وله النظم الفائق الرائع، وبينه وبين العلامة أبي القاسم الزمخشري مكاتبات وأشعار، يمدح كلّ منهما الآخر.

- (١) في معجم البلدان: كرمان ولاية مشهورة وناحية معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان.
- (٢) النجعة: طلب الكلا في مواضعه.
- (٣) مهيع: الطريق الواسع البين.
- (٤) العيس: الواحد أعيس، والواحدة عيساء: الإبل البيض التي يخالط بياضها سواد خفيف، وهي كرام الإبل.

مِرْآتَةُ الْجِنَانِ

وَعِبْرَةُ الْيَقْظَاتِ

فِي

مَعْرِفَةِ مَا يُعْتَبَرُ مِنْ حَوَادِثِ الزَّمَانِ

تَأَلَّفَتْ

الإمام أبو محمد عبد الله بن أسعد بن عتيق بن سليمان
اليافعي اليمني لما توفى سنة ٧٦٨ م

وَضَعَّ حَوَاشِيَهُ

خليفة كل المنصور

للجزء الثالث

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر. أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Copyright ©
All rights reserved

Exclusive rights by DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٢٥ - ٦٠٢١٢٣ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramej al-Zarif, Bohitory st., Melkart bldg, 1st Floor.

Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98

P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon